المحاضرة الثانية : تاريخ البحث في الاتصال

تمهيد:

إن الاتصال بين الناس يمثل منذ القدم، موضوعا مثيرا بالنسبة للمثقفين، ومع ذلك فإنه لم يصبح مادة للبحث بالنسبة للعلماء إلا منذ وقت قليل نسبيا، وفيما يلي نقدم ملخصا عاما لتاريخ البحث في الاتصال، من خلال أهم المدارس والنظريات الخاصة به كعلم مستقل بذاته، وذلك حسب عرض (جوديت لازار) في كتاب "علم الاتصال".

1. البدايات الأولى:

بعد الحرب العالمية الثانية بدأت تظهر الرغبة في إنشاء علم اتصال مستقل، لكن المهتمين والباحثين في هذا المجال لم يتفقوا في ذلك..وانقسموا إلى مدرستين كبيرتين في الاتصال:

- **المدرسة الامبريقية:**

ارتبط الاتصال في الولايات المتحدة، منذ العقد الأول من القرن العشرين، بمشروع بناء علوم اجتماعية مؤسسة على قواعد امبريقية، حيث مثلت مدرسة شيكاغو نقطة الانطلاق لهذا المشروع، فمقاربتها الميكروسوسيولوجية لدور أساليب الاتصال في تنظيم الجماعات البشرية، تتناغم مع فكرها حول دور الأدوات العلمية المعرفية في الوصول إلى حلول للاختلالات الاجتماعية الكبرى، وقد سادت أطروحات هذه المدرسة إلى نهاية الحرب العالمية الثانية. وقد اختارت مدرسة شيكاغو المدينة فضاءا لممارستها البحثية التجريبية، إذ اعتبرتها "مختبرا اجتماعيا"، بدلالاته التي تحمل عدم التنظيم والتهميش والمثاقفة والاندماج، وحيث أن المدينة أيضا هي فضاء " الحراك" الاجتماعي، وقد تجلت تأثيرات مساهمات باحثي هذه المدرسة بين 1915 و 1935 في تركيزها على

مسألة الهجرة ودمج المهاجرين الجدد في نسيج المجتمع الأمريكي، فمن خلال دراساته حول الجماعات العرقية، كان التساؤل المركزي لـ"إيزرا بارك" حول الدور الاندماجي للصحف، ولاسيما المطبوعات العديدة باللغات الأجنبية، وحول طبيعة المعلومات، ومهنية الصحافة، والفروق التي تميزها عن "الدعاية الاجتماعية" أو " الإعلانات البلدية". أما سنوات الأربعينيات، فقد عرفت ظهور تيار جديد ، اشتهرت باسم بحوث وسائل الاتصال، وهو ينزع في قراءته للظواهر التي يدرسها إلى التحليل الوظيفي، معتمدا في مقاربته البحثية على الدراسات الكيفية التي يُعتقد أنها أفضل الأدوات المنهجية في الاستجابة لما يطرحه القائمون على وسائل الإعلام.

- المدرسة النقدية:

بقيادة قدماء مدرسة فرانكفورت من أمثال " هوركهايمر"، "أدورنو"، "ماركوس"،"فروم" ، وتأثرت هذه المدرسة منذ البداية بالفكر الماركسي حيث كان أتباعها يركزون أساسا على المحيط الاجتماعي، السياسي والاقتصادي للبلد الذي تمت في عملية الاتصال. فكانوا يتساءلون دائما: من يتحكم في الاتصال، لماذا؟ لفائدة من؟ هذا بالإضافة إلى رفضهم للجانب الإداري للمدرسة الامبريقية التي يعيبون عليها تركيزها على الاتصال وإهمالها للمحيط التاريخي والثقافي، وهو الأمر – حسب رأيهم – الذي يشوه حقيقة الاتصال. ومن جهتهم، يدافع أتباع المدرسة الامبريقية عن الموضوعية ويرفضون البحث النظري المجرد الخالي من المعطيات الموضوعية.

2. الاتجاهات الحديثة للمدرستين:

إذا كان مجال الاتصال يتميز في بدايته بالثنائية المذكورة أعلاه، فإنه بعد الستينات، أصبح أكثر تنوعا:

- **اتجاهات المدرسة النقدية:**

انقسم أتباع المدرسة النقدية إلى عدة اتجاهات، كل واحد منها اهتم بمؤشر واحد دون غيره من المؤشرات ولكن مع التركيز دائما على التغييرات والصراعات:

- **فالبعض منهم (أصحاب المقاربة الاقتصادية السياسية) اهتم بدراسة العامل الاقتصادي، ومن ثم ركز جهوده على تحليل بنية أو نسق ملكية وسائل الاتصال وكيفية عملها، كما جعل الضبط الاجتماعي مركزا لاهتماماته.**
- **أما المقاربة (الشمولية)، فهي شبيهة بسابقتها مع فرق وحيد يتمثل في كون أصحاب هذه الأخيرة يعطون الأولوية للعامل الايديولوجي على حساب العامل الاقتصادي. فهم يهتمون بدراسة مظاهره المختلفة وآليات ديمومته.**
- **والشيء نفسه بالنسبة (للنظرية الثقافية) و(الامبريالية الثقافية)، اللتين تعتبران سليلتي المدرسة النقدية أيضا، فالأولى، التي تكونت في جامعة (برمنغهام) تحاول أن تفسر معنى الثقافة الشعبية من خلال مجموع التجربة الثقافية، مطالبة بتحليل (الكل) بدلا من عزل مجال ثقافي بعينه. أما الثانية فإن باحثيها، وتحت اسم "الامبريالية الثقافية" يتكلمون عن عملية زرع منتجات الاتصال الجماهيري الغربية في البلدان النامية، معتبرين بأن القيم الموردة إلى هذه الأخيرة هي القيم الرأسمالية التي تلوث الطبيعة المحلية وتستعمرها، عن طريق الرسائل المبعوثة.**

- **اتجاهات المدرسة الامبريقية:**

فبالرغم من محافظتها على مطالبها الرئيسية، فإنها تفرعت إلى مداخل مختلفة تبعا لتركيز اهتمام الباحثين (الآثار)،(الاستعمالات)،(المحتوى):

- إن البحث حول "استعمال" وسائل الاتصال، تحت عنوان "الاستعمال والرضا"أو"الاستخدام والاشباع" كان قد انتشر في السبعينيات، حيث كثف الباحثون من جهودهم حول دراسة رضا الجمهور، محاولين وضع معاملات الارتباط بين طلبات ودوافع الجمهور، وبين تأثيرات وسائل الاتصال. أما في وقتنا الحاضر فالباحثون يهتمون بالمشاركة الايجابية للجمهور في بناء معاني خاصة بالوسائل التي يستقبلها وذلك في إطار مقاربة (نفسية – اجتماعية) أو (تفاعلية) مع الديناميكية الثقافية للمحيط الذي ينتمي إليه هذا الجمهور.
- أما التوجه الثاني، الذي تفرع عن المدرسة الامبريقية، فيتمثل في الدراسات المنجزة في إطار تمديد وتعميق "العلاقة الشخصية". ونعني بها البحوث التي تجري حول "نشر الابتكارات".
- أما "نظرية الثقافة" فتربط بين محتوى الاتصال الجماهيري وتأثيراته المحتملة على الأفراد والمجتمع، فهي من منظور وظيفي تمكن من معالجة محتوى وتأثيرات وسائل الاتصال وخاصة منها التلفزة.
- أما نظرية"التبعية" فهي مقاربة سوسيولوجية، تحاول أن تحدد تحت أي من الشروط يصبح فيها الأفراد تابعين لوسائل الاتصال الجماهيرية، إن منظريها يبرزون العلاقة المتزايدة المتبادلة بين نظام الوسائل وأنظمة اجتماعية أخرى.

3. بعض الاتجاهات الحديثة الأخرى:

سنسرد مجموعة من التوجهات الحديثة الأخرى، والتي فرضت نفسها كاتجاهات بحثية :

- **الحتمية التكنولوجية:** إنها نظرية تقترح توجها لا يلتقي مع أي من المدرستين الكبيرتين المذكورتين أعلاه، وترجع أصولها إلى أعمال " هارولد إينيس" و "مارشال ماكلوهان" اللذين أعطيا في أعمالهما دورا رئيسا

للوسائل في عملية الاتصال بل وحتى في تنظيم المجتمع كله، لقد ركزا في تحليلهما على التكنولوجيا المستعملة في وسيلة الاتصال المسيطرة في كل مرحلة تاريخية معينة، إن مساهمات "ماكلوهان" التي انتقدت بشدة عدة مرات أعيد لها الاعتبار وبجدية في السبعينات. لقد كان يرى بأن المواصفات الأساسية لوسيلة الاتصال المسيطرة بإمكانها أن تدلنا على كيفية التفكير وكيفية تنظيم المعلومات. إن الأبحاث التي تهتم بإشكالية محو الأمية. وهو مجال الدراسة الذي أصبح خصبا ابتداء من السبعينات.

- **وسائل الاتصال والرأي العام:** لقد أخذ هذا الاهتمام حيزا كبيرا في السنوات الأخيرة، ومن أهم هذه المقاربات في هذا المجال نذكر (ترتيب الأولويات) و (لولب الصمت)...
- **أفكار (مولس):** تعتبر طرحا متميزا آخر يبعث على التفكير بطريقة جديدة في العلاقة بين وسائل الاتصال والمجتمع، يرى صاحبها بأن وسائل الاتصال تحول الثقافة عن طريق ما يسميه هو (الثقافيات) أو (الفسيفساء الثقافية). إن هذه الفسيفاء الثقافية، ما هي إلا عبارة عن الأفكار الجديدة الدائرة في رسم بياني، يتمثل محركها الأساسي في وسائل الاتصال (أنظر الرسم البياني المرفق). وبما أن هذا الرسم عبارة عن دائرة مغلقة، فإن نقطة البداية لا توجد أصلا أو هي في الحقيقة مرتبطة بوجود مبدعين: العالم، الأديب، الفنان.. هؤلاء هم الذين يخترعون ويصنعون أفكارا جديدة تنقل لاحقا لمختلف الجماعات. إن هذه الأفكار الجديدة المعبر عنها بالثقافيات تشمل قائمة لا متناهية ...بدءا بوصفة طبخ وانتهاء بأعقد الاكتشافات العلمية، ويمثل كل ذلك قاعدة للثقافة الجماهيرية. إن لوسائل الاتصال، حسب (مولس) دورا كبيرا في الثقافة الحديثة، بل إنها تعتبر في الواقع الناقلات الحقيقية للاتصال والثقافة:

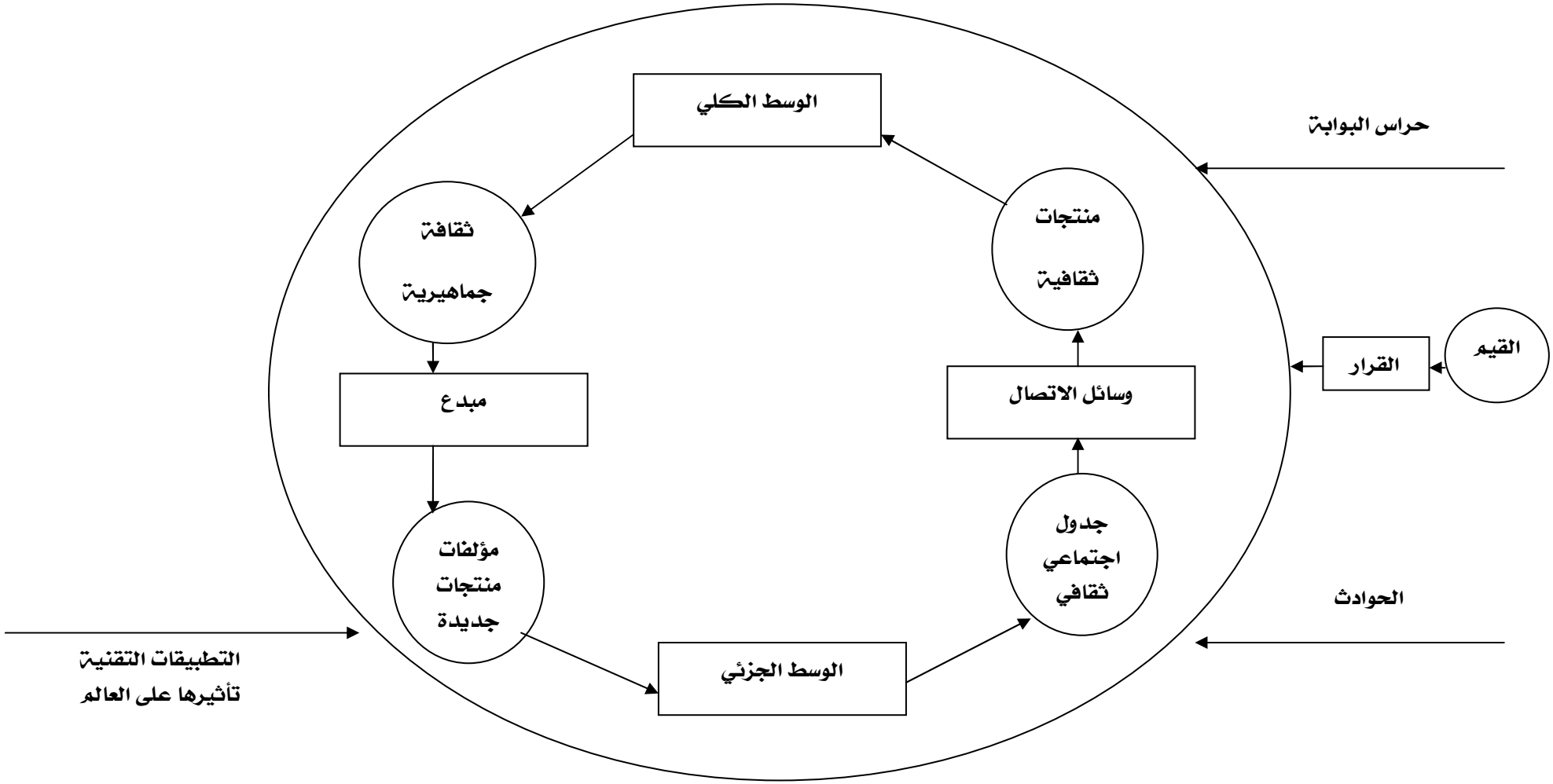
الوسط الكلي
حراس البوابة
ثقافة جماهيرية
منتجات ثقافية
القيم
القرار
مبدع
وسائل الاتصال
مؤلفات منتجات جديدة
جدول اجتماعي ثقافي
الحوادث
التطبيقات التقنية تأثيرها على العالم
الوسط الجزئي

التيارات الأساسية في البحث ومسألة الاتصال

مستوى الاتصال	تيار البحث	موقع الباحث	رؤية الممارسات	رؤية الاعتقادات	أثر وسائل الإعلام	حيز النواع
الطبيعة	سلوكية	هندسة اجتماعية	إجابات سلوكية للبيئة	إجابات سلوكية للبيئة	المراقبة الاجتماعية	يجب على الدولة إعادة بناء المجتمع"المنخرم"
	سيبرنطيقية	فوضوية وعقلانية	أفعال بشرية ناقصة عقليا	اعتقادات بشرية ناقصة عقليا	اصطناعية اجتماعية	يجب إعادة بناء المجتمع بالذكاء الاصطناعي
	حتمية تكنولوجية	شعبوية تنبئية	تشابك وسائل الإعلام والمجتمع حسيا	تشابك وسائل الإعلام والمجتمع حسيا	تشكيل أنواع من الروابط الاجتماعية والاصطناعية	الحركة نحو القبلية تمحو الاختلافات
المجتمع	نظرية نقدية	نخبوية بؤسية	التعارض بين الأفعال العقلانية والأفعال المخدوعة	الايديولوجيا بصفتها أفكارا مهيمنة	تفكيك الروابط الاجتماعية والسيطرة الاجتماعية	الدور الحصري للمثقفين في النقد
	وظيفية	هندسة اجتماعية ونزعة تقدمية	تناسب ثابت للأفعال والنظام أو الخلل الوظيفي	تناسب ثابت للقيم والنظام أو الخلل الوظيفي	إطار التنظيم الاجتماعي والتعبير عن الحاجات الفردية	نزاع ضروري وظيفيا لكن مآله الفشل
	بنيوية تكوينية للهيمنة الثقافية	نخبوية مشروعوية	التناسب الديناميكي للنشاطات مع البنى	ايديولوجيا مهيمنة يجب شرعنتها	إعادة انتاج عدم التكافؤ الثقافي	نزاع معمم لكن هيمنة المثقفين حاضرة
	الدراسات الثقافية	شعبوية منهجية	أنشطة غير متطابقة بانتظام	حوار نزاعي	أمكنة للهيمنة والثقافة	نزاع معمم واستنكار هيمنة
الإبداعية	نظريات الفضاء العمومي	فاعل ديموقراطي	توتر بين المنطق السردي والمنطق العقلي	تعدد الأصوات المتنازعة	فضاء لتعبير الهويات والتداول الفكري	النزاع يؤسس الديمقراطية ويسمح بالتجربة المشتركة
	نظريات الحداثة التفكرية	التفكرية: سلالم التضمن	فعل اجتماعي بما هو تجربة	اضطراب وابداعية	فضاء البناء والتشكيك	نزاع يسمح بالمصالحة لكن دون تسييج

أسئلة للتقويم الذاتي:

- ❖ حدد أهم الفروقات بين المدرسة الإمبريقية والمدرسة النقدية للبحث في الظاهرة الاتصالية؟
- ❖ ما هي أهم الأفكار التي جاء بها (مولس) لتفسير الظاهرة الاتصالية؟
- ❖ صنف الاتجاهات الحديثة للبحث في الاتصال حسب مستوى الاتصال (طبيعي، مجتمع، إبداعي)؟